

الحزن النبيل

يقولون كثيرا ان من الحزن ما قتل ويقولون أحيانا ومن الحب ما قتل .. وتتعدد الأسباب والموت واحد .. ورغم البون الشاسع الذى يفصل بين صريع الحزن وشهيد الحب لشتى الأسباب الا أن الأصل فى الحالتين تلك العاطفة الجياشة التى تربط بين ضحية الحزن وشهداء الحب رغم الفارق النوعى والموضوعى فى الشكل والمضمون.

ان سيكولوجية الحزن تستوجب سبر الاغوار والمسك بالخيط الرفيع الذى يربط بسيكولوجيا الانفعال فى حالة الحزن ومشاعر الحب .. ان من الانفعال حدوث تجثر سيولة الدم وتجلط الشرايين والسكتات القلبية الدفاعية المفاجئة والتى تحدث ونعبر عنها بالصدمة ولكن ما بين تلك الهامة التراجيدية والبدائية الفسيولوجية لهذه الظاهرة نمر عبر (بانوراما) من الانفعالات النفسجدية والتى أشد ما تكون عندما يعجز الانسان .. أى انسان .. وخاصة المرهف الحسى .. والمتوقد الوجدان .. المفرط الشفافية عن التعبير عن مشاعرة بسبب الكبت أو الحرمان أو الاحباط.

وهكذا عندما يسكت اللسان تتكلم الجوارح فى الحديث فتدمع العين ويحزن القلب ولا نقول الا ما يرضى الرب (وانا لفراقك لمحزونون يا ابراهيم) صدق رسول الله... وهذه النقطة الفاصلة بين القدرة على الكبت والرغبة فى التعبير فى وجود العوائق الطبيعية والمفتعلة المانعة لتفجير هذه الطاقات الكامنة تتفجر الشرايين و تثور البراكين .. ويستوى الحزن والحب فى ميزان القدرة على الفتك بالإنسان .. المبدع .. والعبقري.. والفنان .

يقول علماء النفس ان مشاعر الحزن ليست صورة واحدة هى للتعبير الخارجى عن الوجدان أو العاطفة والتى تتحكم فيها عدة عوامل اجتماعية وثقافية ونفسية نغطيها بالشكل الذى يحاول ان يبدو عليه المتألم والمتحسر او المثابر امام الآخرين .. وقد تتخذ عدة صور وأهمها صورتان السارة أو الحزينة حسب هذه المعطيات وبقدر كمية ونوعية المتناقضات التى تحكم مصدر العاطفة .. فهنالك الحزن الضاحك والضحك الحزين وهناك دموع الفرح ودموع الحزن .. وشتان ما بين الإثنين .. ويصعب أن نفرق ما بين الإثنين الا من خلال استبطان وصلة الوجه الضاحك أو قراءة تقاطيع الوجه الحزين وهذا النوع من المشاعر والاختلاف فى التعبير هو الذى يعطى الحياة نكهة خاصة فلا إفراط ولا تفريط وخير الأمور الوسط ... ولكن كيف ومتى ؟

ان الله قد خلق الليل والنهار والحركة ليضبط حركة الكون وايقاع الحياة بميقات معلوم .. ولو كانت الحياة نهارا دائما .. او ليلا قاتما .. لاختل ميزان الحياة .. وقتلتنا رتابة النهار ومللنا ظلام الليل .. وهكذا مزاج الانسان .. المتقلب فرحا وحزنا .. المتفاعل فيها وكانت وخير الأمور

الوسط وهذا ما يسعى اليه الأطباء النفسانيون .. والمصلحون الاجتماعيون وكل العاملين فى حقل الصحة النفسية فى محاولاتهم المتلاحقة لتعديل اضطرابات المزاج ..

استوقفتنى هذه الانطباعات العابره وانا استمع الى اغنية المطرب الراحل المقيم مصطفى سيد أحمد (الحزن النبيل) .. حزن الأصالة والشفافية والابداع .. الحزن الذى يدغدغ قلبا يتوكأ على آخر نبضاته ليوصل نغمة شجية لاذن مريض يصارع الموت وعندما تتمدد آهاته الطويلة .. فى (ندمان أنا) .. ويسكب عصارة قلبه المثقل بجراحات القهر .. وقاسى العصر .. وتخيّل ان انفاستة تتقطع بعد كل مقطع .

وقذف الى ذهنى فى المقابل صوت الفنان المبدع الطيب عبدالله .. وهو يغنى ضمن ما يغنى فى موجات الحزن الجارف فى طيات ضلوعته (أندب حظى أم أمالى) وهذنى مالو ومالى ،، واكاد أجزم لولا اننى أعرف شاعر القصيدة لقلت ان الطيب قد نظم القصيدة .. وجمع حروفها من أحشائه الممزقة بالحزن .. ولملم كلماتها من نفس نبراته المتهدجة بالألم .. ونظم أبياتها من شرايينه النابحة فى الاداء .. طاقة مشحونة بالمشاعر الحزن النبيل ..الذى يبكى فرحا بالآخرين ويتلذذ بمرارة الآهات التى تحرق شفاهه .. وهو بعيد .. وبعيد .. ويتحرق شوقا للاعادة حتى يلتصق بوجودان كل مستمع .. ويتعانق مع انفاستة كل ملتقى يجيد فن الاصغاء .. ان قاسما مشتركا أعظم يربط بين المطربين فى الأصالة والشفافية والابداع وليست الرؤية فى المعاصرة .. والتوحد فى المهنة .. والصبر على المعاناة ولكنها فى الحزن النبيل الذى يتمتعان به .. وينعمان فيه .. وهى نعمة لا تتوفر لكل الناس .. فى زمان كل فيه أمثال الشاعر اسماعيل حسن حين يقول شن بتقولوا .. الشيل هموم الناس والههم العندو غالبو يشيلوا) .. ويكفى أن تعيد الاستماع الى هذه الاغنية لترى صدى الحزن النبيل .. الشلال المتدفق من وجدان الشاعر الموسيقى فى حنجرة الفنان محمد وردى .. ولنا عودة) .

واستمرت رحلتى مع الحزن النبيل الذى تورقنى لاستريح فى محطة أسطورة الطرب الفنان عثمان حسين .. رائد المدرسة المعاصرة واكبر روافد الحزن النبيل فى الفنان السودانى الأصيل .. معزوفة الشجن المتجدد فى قاموس الفن السلم الخماسى .. أن الشجن الداخلى الذى تدخر به عبقرية الفنان عثمان حسين يكفى لإشباع أمة من المتعطشين والمحرومين والمقهورين .. والعاجزين عن التعبير فى وقت الكلام ..والصامتين عن الحديث خشية الاستسلام لضعف النفس البشرية فى الحزن أو الحب .. رغم الايمان الغريزى بان من الحزن ما قتل .. وحياتهم تتجدد مع تجاوز كل تجربة حزينة يلقون بندواتهم فى نيرانها فدية لحبيب أو انتصارا لمبدأ ..

إن تجربة عثمان حسين .. تجربة فريدة وثيرة .. ومتميزة .. ويستحق ان نختم بها قصة الحزن النبيل ولا يمكن ان يكون ختامها الا كتاب منفصل أعد حلقاته الآن .

وأسأل الله أن يمد في أيامه حتى يرى الكتاب النور.. ويرى بعينه ما لم تسمعه أذنيه .. وكما
يقول ما أقصر العمر لولا فسحة الأمل ...

دعونا نأمل ... وعلى الله الرجاء .. ولنا عودة .. باذن الله .

د. الزين عباس عماره